قراءة في كتاب:

"الأخلاق المسيحية"*

نحو علم مسيحيات إسلامي

عامر عدنان الحافي*

مقدمة:

يعدّ إسماعيل راجي الفاروقي أحد أهم المفكرين المسلمين، الذين درسوا الفكر الديني المسيحي دراسة عميقة مستوعبة لنصوصه الدينية، والمؤثرات التاريخية التي رافقت تبلوره، بعيداً عن الدراسات الجدلية التي تعيد إنتاج أجواء الثقافة (القروسطية) الصراعية التي صاحبت حروب الفرنجة. وبعيداً عن الأحكام المسبقة والنزعة الإقصائية التي تغلب على أكثر الكتابات الإسلامية جاء كتاب "الأخلاق المسيحية"؛ ليؤكد أن الفكر الإسلامي لا يزال قادراً على الولوج في أغوار الآخر الديني، ومنظوماته الفكرية.

لا يتردد الباحث المتخصص في مجال الأديان، عند قراءته لكتاب "الأخلاق المسيحية"، في وصف هذا الجهد العلمي بأنه الكتاب الإسلامي الأكثر عمقاً وموضوعية في دراسة الفكر الديني المسيحي. فقد قام الفاروقي في دراسته المتعمقة للأخلاق المسيحية بإعادة تركيب التصور العقدي للمسيحية، ولم يقصر دراسته للأخلاق المسيحية على الجانب العملي للأخلاق. كما استوعب الفاروقي، في دراسته للمسيحية، المناهج الغربية وأدواتها التحليلية، ورجع إلى آراء المفكرين المسيحيين أمثال: أوغسطين (Augustine)، وبارث (Barth)، ورينهولد نيبوهر (Reinhold Neibuhr). وإلى جانب هؤلاء أفاد

---

* Al-Fauqi, Isma'il, Raji. *Christian Ethics: A Historical and Symbolic Analysis of Its Dominant Ideas,* Montreal Canada: McGill University Press, 1967.

* دكتوراه في مقارنة الأديان من جامعة الزيتونة. أستاذ الأديان المشارك في جامعة آل البيت/ الأردن، المستشار الأكاديمي للمعهد الملكي للدراسات الدينية. البريد الإلكتروني: alhafy30@yahoo.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١٣/٥/١٠م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٣/٩/١٥م.

الفاروقي من الدراسات الغربية النقدية المعارضة للنظرة المسيحية التقليدية للمسيح، كما هو الحال مع س. هـ. دود (C. H. Dodd).

وإلى جانب التعريف بأهمية كتاب "الأخلاق المسيحية" تسعى هذه الورقة إلى التعرف إلى المقدمات المنهجية التي أقام عليها الفاروقي نقده للأخلاق المسيحية والتصورات العقدية المتصلة بها، وإلى أي مدى كان الفاروقي موفقاً في إعادة بناء التصورات المسيحية؟ وما هي وجهة النظر المسيحية حيال ما قدّمه الفاروقي في كتابه من نقد عميق للمسيحية؟

محتويات الكتاب

يُعدُّ كتاب "الأخلاق المسيحية" دراسةً إسلامية معاصرة ومتخصصة في الأخلاق المسيحية، امتازت بالعمق، والتوثيق، والتمكن من تقنيات البحث العلمي التي يستعملها الغربيون في دراساتهم. وامتاز الكتاب كذلك بالمعرفة العميقة للنصوص المسيحية المقدسة. وقد قدّم هذا الكتاب دراسة نقدية عميقة للتصورات الأخلاقية المسيحية، وامتدّ نقده ليطال بعض الأصول العقدية للمسيحية، مثل عقيدة الخطيئة الأصلية. وسعى الفاروقي إلى إثبات حدوث تغيير في تلك التصورات، أدّى بها إلى الانحراف عن تعاليم المسيح ﵇. إلا أن عمق النقد وشدته الذي نجده في الكتاب كان متصلاً دوماً بقناعة الكاتب، والتزامه بقيم الحوار العلمي مع أتباع الديانة المسيحية.

اشتمل الكتاب، على مقدمة وقسمين؛ تناولت المقدمة المحاور الآتية: خطاب إلى المجتمع الديني العالمي، العصر بوصفه انفصالاً دينياً ثقافياً، وراء العصر: الحاجة إلى مبادئ شاملة، وتحت هذا العنوان الأخير عالج المواضيع الآتية: المبادئ النظرية، الحاجة إلى التقويم، تاريخ الأديان، ما وراء الدين، الوجود المثالي والوجود الفعلي، الصلة بين الوجودين، الوجود الفعلي خيّر، الوجود الفعلي طيّع، الحوار الإسلامي المسيحي، جوانب النقص في علم المسيحية المقارن، بيشوب ستيفن (Bishop Stephen)، هندريك كرايمر (HENDRIK KRAMER)، ألبرت شويتزر (ALBERT SCHWEITZER).

جاء القسم الأول تحت عنوان: "ما هي أخلاق المسيح؟" واشتمل على خمسة فصول؛ جاء الفصل الأول تحت عنوان "الخلفية اليهودية" وتناول فيه الأخلاق اليهودية، طبيعة العنصرية العبرانية، النص العبري بوصفه تدويناً للعنصرية العبرانية، الوضع الأخلاقي السياسي في زمن المسيح، عبادة القانون. وجاء الفصل الثاني تحت عنوان "الاختراق الأخلاقي للمسيح"، وتناول فيه ردة الفعل للأخلاق اليهودية، أخلاق القصد (النية)، التخلص النهائي من الشريعة، محتوى التحول الذاتي، أولية الأمر الأول. وأما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان "الأخلاق الجديدة"، وتناول فيه المؤلف القيم القديمة والجديدة، في المجالات السياسية، والاجتماعية، والأسرية، والشخصية، والكونية، وختم الفصل الثالث بالحديث عن أخلاق المسيح والشريعة المسيحية. وجاء الفصل الرابع تحت عنوان: "الصوفية الموازية". وتناول فيه: التوازي، وتفسيره.

القسم الثاني من الكتاب جاء تحت عنوان: إعادة التقويم المسيحي، وتناول ثلاثة فصول؛ الفصل الأول "من هو الإنسان؟ صورة الإنسان"، وتناوله في المراحل الآتية: في المسيحية الهلينية، ومسيحية ما قبل الإصلاح، والمسيحية الإصلاحية، والمسيحية المعاصرة. وفي الفصل الثاني تناول موضوع: "ما الذي يجب أن يكون عليه الإنسان؟ الخطيئة والخلاص". وتضمن هذا الفصل الموضوعات الآتية: الإنسان مخلوق ساقط: "الإثمية"، الخلفية اليهودية، إعادة التقويم المسيحي لفكرة السقوط اليهودية، السقوط، الخطيئة في الإنجيل، الخطيئة في تعاليم بولس، الخطيئة عند الآباء، الخطيئة قبل أغسطين، أغسطين: أنموذج الإثمية، الخطيئة عند الإصلاحيين، الإثمية والفكر المسيحي المعاصر، الإنسان والمصالحة (الخلاصية)، المسيحية دين الفداء، طبيعة الإنقاذ الخلاصي.

الفصل الثالث وعنوانه: "ما الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، الكنيسة والمجتمع". وتضمن هذا الفصل الموضوعات الآتية: المجتمعية والفردانية، المسيحانية والمجتمع، وتناول هذا الموضوع في اللاهوت التقليدي، ثم في اللاهوت المعاصر من خلال وليام تمبل (William Temple)، وكارل بارث (karl Barth)، وفي لاهوت المستقبل من خلال: نقص الأسس الاجتماعية والانقسام، ضمير الإنسان الغربي، التقويم المجتمعي، مجتمعية رينهولد نيبوهر (reinhold Niebuhar).

ما هي أخلاق المسيح؟

تناول الفاروقي في الفصل الأول من القسم الأول من الكتاب موضوع الأخلاق اليهودية، قبل الحديث عن أخلاق المسيح، وقد اشتمل حديث الفاروقي عن طبيعة العنصرية اليهودية، واستدل بالنصوص العبرية المقدسة توثيقاً لتلك العنصرية، ثم تناول الأوضاع الأخلاقية التي كانت سائدة في زمن المسيح، فالمسيح قد وُلد بين اليهود، وتأثر بأخلاقهم وظروفهم، وقد بدأ دعوته من المجتمع اليهودي.

رأى اليهود في المسيح بدايةً لحركة تهدف إلى إحداث تغيير جذري في روحهم، ونظامهم، وأخلاقهم؛ ومن هنا قرروا وضع حد لحياة المسيح من أجل الحفاظ على تلك الروح وذلك النظام. ولمعرفة أية أخلاق كانت وراء تلك المعارضة اليهودية للأخلاق التي نادى بها المسيح، رجع الفاروقي إلى المراحل التاريخية الأساسية التي شكّلت الروح والأخلاق اليهودية، فعاد إلى مرحلة الخروج من مصر للتعرف على التكوين الداخلي للأخلاق اليهودية.[١]

وقد أثبت الفاروقي، بعد عملية الاستقراء، أن الأخلاق اليهودية قد تأثرت بالقيم والأخلاق التي كان عليها الناس في الإمبراطوريات القديمة، ولاحظ أن سقوط الدولة لا يعني سقوط جملة القيم، والأخلاق، والمعايير التي يؤمن بها مواطنو تلك الدول، فالشعوب القديمة قدّمت قيمة الحياة الإنسانية على شكل الحُكم السياسي للدولة.[٢] وخلافاً للشعوب القديمة (الأكاديين، والعموريين، والمصريين، والآشوريين...) اعتمد اليهود وحدهم كلتا القيمتين (الحياة الإنسانية، والنظام السياسي)، وجعلوا الأولى منهما مجرد وظيفة للأخرى، فبالنسبة لهم فإن الحياة الإنسانية لها قيمة طالما كانت تحمل أفكارهم السياسية الخاصة.[٣] فالعِرْق لم يكن في يوم من الأيام فكرة كيميائية أو بيولوجية فحسب،

---

1 Ismail Ragi A.alfaruqi. Christian ethics a historical and systematic analysis of its dominant ideas. Montreal. Mc Gill University press. 1967. p50

٢ المرجع السابق، ص٥٠-٥٢.

٣ المرجع السابق، ص٥٢.

بل كان دوماً ينطوي على عنصر غير مادي يرتبط بالعلاقة السياسية،[٤] ولذلك فإن تاريخ اليهود إلى اليوم هو قصة لتلك العنصرية المنطوية على كثير من الغموض والإبهام، فنصوصهم الدينية المقدسة هي لهم وحدهم دون غيرهم، كتبها لهم أسلافهم، وهم فقط من يفهمون تلك الكتابات.[٥]

ينطلق الفاروقي من مقدمة أساسية في سياق تعرضه للعنصرية اليهودية، وهي أن ثورة المسيح لن تكتمل دون أن نفهم أنها جاءت ضد الأخلاق العنصرية اليهودية.[٦] وفي هذا السياق يتعرض المؤلف لمكونات تلك الأخلاق العنصرية من خلال مفهوم العنصرية غير المعللة، وهنا يطرح سؤالاً يؤكد من خلاله مضمون تلك العنصرية. لماذا اختار الله إبراهيم والعبرانيين؟

ويجيب اليهود العنصريون عن السؤال السابق "لأن اليهود هم اليهود". وينتقد الفاروقي من يؤيد هذه الإجابة العنصرية من المسيحيين الغربيين ويقول: "لسوء الحظ أن أتباع المسيح في القرن العشرين قد استخفوا بمغزى هذه الثورة التي جاء بها المسيح."[٧]

الاختراق الأخلاقي للمسيح

تحدث المؤلف في الفصل الثاني من القسم الأول عن الاختراق الأخلاقي للمسيح، وبدأ بالتأكيد على أن الأخلاق التي جاء بها المسيح هي ردٌّ على الأخلاق اليهودية العنصرية؛ فالمسيح كان مهتماً بالإنسانية أوّلاً وأخيراً، وكان مهتماً باليهود بقدر ما هم جزء من تلك الإنسانية.[٨] ومن أجل بلوغ تلك الإنسانية، رأى المسيح أن استبعاد الشريعة اليهودية للإنسانية يشير إلى فشل تلك الشريعة في إدراك القيم الجديدة للأخلاق العليا. وفي هذا السياق فقد حدد الفاروقي ثلاث سمات للأخلاق الإنسانية للمسيح:

[٤] المرجع السابق، ص٥٢.
[٥] المرجع السابق، ص٥٣.
[٦] المرجع السابق، ص٥٩.
[٧] المرجع السابق، ص٥٠.
[٨] المرجع السابق، ص٧٧.

١. أن أخلاق المسيح ترتكز حول الذات الخاصة وشخصية الفرد.

٢. أنها تحقق القيم السامية.

٣. أنها تحقق الإنسانية الشاملة (ذات نطاق إنساني).[٩]

وهذه السمات الأخلاقية الإنسانية تخالف الأخلاق اليهودية التي تتمحور حول اليهود فقط دون غيرهم.

شهدت فلسطين صعود الإمبراطورية اليونانية وانهيارها. وشهدت قبل ذلك تعاقب الإمبراطوريتين البابلية والفارسية، وفي خضم ذلك كانت الأخلاق التوحيدية الإبراهيمية قد نسيت تماماً، ولم يكن أحد يرى ضرورة الأخلاق والحياة الروحية للإنسان.[١٠] وفي مقابل شريعة التوراة التي تسعى إلى ارتكاب الجرائم، لتحقيق الازدهار، والوحدة والهوية، لفت المسيح الانتباه إلى قانون آخر أعمق غوراً وأكثر أهمية، وهو القانون الأخلاقي.[١١] ولأنه قانون "أخلاقي" فليس من طبيعته أن يُصبح تشريعاً، فطبيعته تخالف جميع المظاهر الخارجية، لأن موضوعه هو النفس، الوجود الداخلي للإنساني، الذي لا يصل إليه إلا الإنسان (الضمير الذاتي الأخلاقي)،[١٢] وعلى هذا الأساس انحصر قانون المسيح داخل نطاق النفس الداخلية. فالنفس هي ساحة الصراع لجميع القيم الأخلاقية العليا، ومن أجل ذلك يجب أن يكون أول ما يؤخذ بالاعتبار هو القضايا الأخلاقية، ومن خلال هذه المنطقة الضيقة، أوجد قانون المسيح كل ما يلزم لصياغة الفهم الكامل، فما هو غير موجود في التشريع هو كامن في عمق النفس البشرية.[١٣]

وتحقق الأخلاق رُقيّها الجديد والعظيم عندما تغيّر تركيزها من (الإرادة الجماعية)، بالنجاة إلى (الإرادة الشخصية)، من خلال التغلب على النفس وبذلها، وجعلها إرادة

[٩] المرجع السابق، ص٧٧.
[١٠] المرجع السابق، ص٧٤.
[١١] المرجع السابق، ص٧٦.
[١٢] المرجع السابق، ص٧٦.
[١٣] المرجع السابق، ص٧٧.

شخصية للحب.[١٤] أما القانون اليهودي، فقد اتجه إلى الاهتمام بالمجتمع اليهودي (إسرائيل) من أجل تحقيق أهدافه، وقد جعل هذا القانون (إسرائيل) فوق الجنس البشري كله، وكرّس فكرة الانفصال، وجعلها شرطاً للحفاظ على الهوية المختلفة عن (الغويم). فالشريعة اليهودية جاءت للحفاظ على النقاء العِرْقي والانفصال، وأما القانون الجديد للمسيح، فقد عدّ ذلك تعصباً ولا معنى له، وانفصالاً يستحق الإدانة الصارمة؛[١٥] إذ رأى المسيح أن كل إنسان هو شخصية تحظى بالكرامة الكاملة للخلق، وهذا مناقض تماماً للانفصالية اليهودية والانتقائية العنصرية.[١٦] وقد أعلن المسيح الأخوة العالمية للإنسان، وأخذت هذه العالمية اتجاهها من البحث العميق لمعنى الشريعة، وتأكيد النظرة الداخلية للأخلاق.

كان المسيح مراقباً متحمساً ودارساً مهتماً بمنظومة الأفكار المحيطة به،[١٧] وكان معتاداً على النصوص اليهودية المقدسة، وجميع الجوانب الأخلاقية والروحية للشعب اليهودي. وقد تجاوز المسيح ذلك، ليكتشف أين وقع الضلال والابتعاد عن الأخلاق الصحيحة، التي تأخذ بعين الاعتبار الوعي الأخلاقي للإنسان،[١٨] وكانت الأخلاق اليهودية هي النسيج الذي مرّ من خلاله الوحي الذي جاء به المسيح في القضايا الأخلاقية. وبذلك تُصبح أخلاق المسيح بناءً للأخلاق السماوية المنازعة للأخلاق اليهودية. ولا يعني هذا أن أخلاق المسيح لم يكن لها شأن بالمنظومات الأخلاقية الأخرى للشعوب، وإنما يعني أن الأخلاق التي جاء بها المسيح هي بمثابة ردٍّ على المشكلات الأخلاقية اليهودية التي تمثل الأخلاق السائدة في ذلك العصر.[١٩]

إن الأخلاق التي جاء بها المسيح تختلف عن الشريعة اليهودية؛ إذ تقوم على أسس جديدة تماماً، غايتها الإنسانية العالمية، كما هو الحال مع الأخلاق السامية، وهذا نقيض

[١٤] المرجع السابق، ص٧٧.
[١٥] المرجع السابق، ص٧٧.
[١٦] المرجع السابق، ص٧٧، ٧٨.
[١٧] المرجع السابق، ص٧٤.
[١٨] المرجع السابق، ص٧٥.
[١٩] المرجع السابق، ص٧٥.

المثال الذي تتضمنه الشريعة اليهودية، الذي يقوم على الرباط الاجتماعي، وهي في الأساس أخلاق تقوم على النتائج، وأية أخلاق تقوم على النتائج المادية (النفعية) لا تستحق أن تكون أخلاقاً على الإطلاق.[٢٠] فالمسيح رأى أن المكانة العليا ليست للتأثير المادي للفعل، وإنما للمقصد الأخلاقي للفاعل، فالنية هي نقطة الارتكاز للأخلاق، والنية هي التي تعطي للفعل سمته الأخلاقية،[٢١] والسمة الأخلاقية للفعل تكمن في فعل الإرادة التي أرادته، والقيمة النفعية للنتيجة لا تمس نوعية الفعل التي تبقى مسألة نية وإرادة.[٢٢] لقد جاءت الأخلاق التي حققها المسيح ثورةً جعلت الإرادة منبع جميع التصرفات، فإذا كانت الإرادة حسنة قوية، مهتدية، سيكون عملها كذلك، "من ثمارهم تعرفونهم.هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً." (متى١٦:٧).[٢٣]

التخلُّص النهائي من الشريعة

تحت هذا العنوان "التخلص النهائي من الشريعة"[٢٤] عالج الفاروقي مقولة القديس أوغسطين: "أحببِ اللهَ وافعلْ ما تشاء". وهنا يشير الفاروقي إلى أن هناك تحولاً جوهرياً قد وقع، وهذا التحول يقوم على أساس أن النفس إذا بلغت الكمال، والتغيّر الجذري، فإنه يمكن أن يوثق بها لعمل ما تريد، فإنها لا يمكن أن تطلب الشّر وتفعله، وهذه الوضعية تعطي الإنسان أوسع أفق لحرية الحركة، ومن أجل هذا السبب لم يفصِّل المسيح قانوناً، وبقدر ما يفعل أتباعه ذلك فإنهم يخالفون روحه.[٢٥]

والموضوع الأهم في نظر المسيح هو تحويل النفس الإنسانية جذرياً؛ أي مضمون التحول الذاتي؛ إذ ينتقد الفاروقي القول بأن جوهر المسيحية موجود في القاعدة الذهبية

---

[٢٠] المرجع السابق، ص٧٨.

[٢١] المرجع السابق، ص٧٨.

[٢٢] المرجع السابق، ص٧٩.

[٢٣] المرجع السابق، ص٧٩. النصوص من العهدين القديم والجديد، الكتاب المقدس، القاهرة: دار الكتاب المقدس، ط٣، ٢٠١٢م.

[٢٤] المرجع السابق، ص٨٠.

[٢٥] المرجع السابق، ص٨١.

"فكل ما تريدون أن يعاملكم الناس به فعاملوهم أنتم به أيضا" (إنجيل متى: ٧:١٢) ولا يرى في هذه المقولة مضموناً دينياً.[٢٦] وعلى قدر ما تكون المُثل عموماً حقيقية، فإن القيم عموماً تكون حقيقية، وهذا ليس من وجهة نظر أخلاقية، وإنما من وجهة نظر كونية.[٢٧]

والأخلاق هي الأكثر شمولاً، والأصل الأهم، فهي السُّلطة الأخيرة للصواب والخطأ، والحق والباطل، فيما يتعلق بالسلوك الأخلاقي.[٢٨] ومحبة الله التي أمر المسيح بها ليست أمراً أخلاقياً فحسب، وإنما هو واجب ديني، من حيث إنه شامل وأساسي، ولأنه يؤكد أن الله وحده هو الحقيقة الأولى والأخيرة، الجديرة بأن تكون محلاً لمحبة الإنسان وخضوعه.[٢٩]

وأكد المسيح أن الله هو ذاته "الحقيقة"، وأن طبيعة هذه الحقيقة، هي حقيقة آمرة. وعندما تدخل الحقيقة الإلهية وعينا (ضميرنا)، فإنها تفعل ذلك بوصفها حقيقةً آمرة؛ لأن "الإله الذي لا يأمر ليس إلهاً."[٣٠] تماماً كما أن الخير الذي لا يمكن له أن يكون حقيقياً لن يكون خيراً على الإطلاق.[٣١] وما يأمر به الله ليس كفعل أي واحد خيِّر، وليس كفعل الخير على وجه العموم. فالله لم يأمر من خلال المسيح أن نفعل على وجه الإطلاق، وإنما أن نجعل أنفسنا في علاقة محددة معه عزّ وجل.

هذه الوضعية تشير إلى نقل الإنسان من حالة عبادة الآلهة الأخرى من قبل إسرائيل (الدولة والشعب) إلى عبادة الله وحده الذي يأمر ويقرر.[٣٢] إن هذا التحول الجذري للنفس هو بالتأكيد حدث ديني على اعتبار شموليته، يتمثل تأثيره على النفس في إعادة توجيه الوجود الروحي للإنسان إلى الحقيقة الإلهية. وهذا التوجيه الجديد يتخلل الأخلاق والإرادة، ويؤثر في جميع سلوك الإنسان وحياته. وعلى ذلك، فالتحوُّل في المسألة هو

[٢٦] المرجع السابق، ص٨٣.
[٢٧] المرجع السابق، ص٨٤.
[٢٨] المرجع السابق، ص٨٤.
[٢٩] المرجع السابق، ص٨٤.
[٣٠] المرجع السابق، ص٨٤.
[٣١] المرجع السابق، ص٨٤.
[٣٢] المرجع السابق، ص٨٤.

ظاهرة دينية واضحة.[٣٣] وأبعاد إعادة التوجيه للحياة هي مسألة أخلاقية، ولكنها ليست أسساً لجعل تلك الحياة مرغوبة، وإنما تكمن تلك الأسس في أسبقية المستوى الميتافيزيقي على المستوى الأخلاقي، وأسبقية علم القيم (Axiology) على علم الأخلاق (Deontology).[٣٤] ومن جهة ثانية فإن ذلك التحول لا ينشأ عن التفكير السليم، أو الاعتقاد الأعمى، وإن كان يتحرك ضمن الأسباب، وإنما يتخذ ذلك التحول مكانته بوصفه حقيقةً أولى وأخيرة. فالناس جميعاً يتحركون بإرادة الله على المستوى الطبيعي، ولكن قلة منهم من يقبلون فعله؛ ليصبح قراراً لهم.[٣٥] وإعادة التوجُّه عند المسيح هي نظرة لا يمكن لها أن توجد على المستوى التجريدي، وإنما من خلال "قرار" والأفعال هي التي تجعلها تتحقق.[٣٦] هذا التوجُّه الجديد من شأنه أن يغيِّر جذرياً ما يجب أن تقوم به النفس، ويفتح النفس على تقرير القضايا من خلال مصدر واحد فقط، وهو الله.[٣٧]

وهذا الموقف ليس موقفاً سلبياً مذعناً، ولكنه دعوة ديناميكية من الله للانتشار والتوسُّع، وهو يتمثل من خلال عبادة الله طاعته ومحبته.[٣٨] وإن العبادة هي تركيز لقدرات الإنسان على الله إلى حد أنها تقرر وعي الإنسان وإرادته، وعبادة الله لا تكون جديرة بهذا الاسم، إذا لم تتطلب هكذا قرارات من الله تجاه إرادة الإنسان. وما يُسمى التأمُّل (النقي) لله لا يختلف عن ما يسمى بالقرارات الجمالية (النقية) للعمل الفني، فكلاهما لا معنى له إذا لم تفتح الروح التأمُّلية نفسها لاستقبال القرارات واتخاذها من موضوع التأمل.[٣٩]

لذلك فالتحوّل الذاتي الذي دعا إليه المسيح، هو تحوّل ديني وأخلاقي في الوقت ذاته "أن تحب الله من كل قلبك، ومن كل روحك، ومن كل عقلك"، هذه هي الوصية الأولى

[٣٣] المرجع السابق، ص٨٤.
[٣٤] المرجع السابق، ص٨٥.
[٣٥] المرجع السابق، ص٨٥.
[٣٦] المرجع السابق، ص٨٥.
[٣٧] المرجع السابق، ص٨٥.
[٣٨] المرجع السابق، ص٨٥.
[٣٩] المرجع السابق، ص٨٥.

العظمى، فهي دينية بقدر ما هي إعادة توجّه كامل نحو الله، وأخلاقية بقدر ما تكون إعادة التوجّه متركزة على محبة الله من جميع قلب الإنسان وروحه، وعقله، وهذه هي الطريقة الدينية الأدبية للقول بأن المقرر الروحي لرغبة الإنسان وإرادته وفكره يجب أن يكون الله، لأنه الوحيد الجدير بهكذا مكانة، وهكذا دور.

الحب ليس شيئاً آخر غير هذه الدعوة من الله؛ لتقرير الأخلاق والطاعة والاستجابة لقرارات تلك الإرادة؛[٤٠] إذ إن الله هو مقرر الأخلاق.[٤١] فالأوّلية التي أشار إليها المسيح ليست أوّلية منطقية أو ترتيبية، وإنما هي أوّلية قيمية؛ لأن من طبيعة القيم أنها لا تحتاج ثانياً ولا ثالثاً. والنقطة الأساسية للتغيير الذي قام به المسيح وثورته على قانون الأخلاق اليهودية سوف يضيع، إذا تمّ تفسير هذه الأوّلية بوصفها أوّلية منطقية أو ترتيبية، ومن المؤكد أن الشريعة اليهودية لم تنكر هذه النوعية من الأوّلية،[٤٢] وبذلك تغدو هذه الأوّلية أوّلية قيمية بهدف التأكيد على أن هذه الوصية هي الأساس الكافي لجميع الأديان والأخلاق؛ لأن مضمونها يشتمل على كل ما هو ضروري لإحداث التحوّل النفسي الجذري المطلوب.[٤٣]

وعلى هذا الأساس يرى الفاروقي أن هذه الأوّلية لا تقبل إضافة وصية ثانية، ولذلك يذهب إلى نقد فهم (متّى) للمسيح عندما قال، بعد أن تحدث عن محبة القريب (أن تحب قريبك كما تحب نفسك): "بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء"؛ إذ جاء: "أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معاً، وسأله واحد منهم وهو ناموسيّ؛ ليجربه قائلاً: يا معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى، والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء." (متّى ٢٢: ٣٤-٤٠) إنّ الوصية الثانية غير ضرورية لأنها متضمنة في الوصية

[٤٠] المرجع السابق، ص٨٥.
[٤١] المرجع السابق، ص٨٥.
[٤٢] المرجع السابق، ص٨٦.
[٤٣] المرجع السابق، ص٨٦.

الأولى، والمتطلب ليس منطقياً وإنما مادياً،[٤٤] ولا يوجد سبب -حسب الفاروقي- لإفراد هذه الوصية (محبة القريب) من بين جميع المتطلبات المادية الأخرى، فالأمر بالتوبة وتطهير الإنسان لنفسه على سبيل المثال مقدمة على محبة الإنسان لقريبه.[٤٥]

إن تعليق (متّى) بأن كل الشريعة والأنبياء جاءت من أجل هاتين الوصيتين يؤكد أنه تحدث عن الوصية الثانية بوصفها وصية ثانية، وقد أشار بول رامسي (Paul Ramsay) إلى أن تفسير متّى (بعيد عن نظرة المسيح)، وذلك لاختلافه عن مرقص، ولوقا في هذا الموضوع، ولِما عُرف عنه من علاقة بالشريعة اليهودية.[٤٦] ويمكن أن يكون المقصود بالأوّلية عند المسيح هو الفَرادة، وهنا لن يكون هناك وصية ثانية أخرى على الإطلاق، فمن قيمة الأوّلية أن تستبعد الحاجة إلى الثاني.

وانتقد الفاروقي كلاً من ت. و. ماناسون(T.W. Manason) و بول. رامسي (P. Ramsay) لأنهما لم ينظرا إلى الأمام بما فيه الكفاية، من أجل أن يصلوا إلى أن الوصية الثانية جاءت توضيحاً وتعليقاً على الوصية الأولى، وأن النظر إليها على أنها وصية ثانية ناتج من سوء فهم لِما جاء به المسيح من تغيير أخلاقي.[٤٧]

إن الله وحده هو الموضوع الأمثل للحب، الذي ينبغي لحبه أن يشغل (قلب الإنسان، ونفسه، وعقله)، وهذا يعني أنه هو وحده الذي يقرر جميع أعمال الإنسان، فماذا يبقي للجار بعد ذلك من مكانة؟ أليس من التجديف (الكفر) أن يشغل الجار أي مكان مهما كان صغيراً، في القلب أو النفس أو العقل الخاضع تماماً لله؟

وانتقد الفاروقي قول (Manson) الذي يذهب إلى أن خبرة محبة الله تستتبع معرفة أن ذلك الحب هو للإنسان؛ إذ يرى الناس من خلال عيون الله. وأن يراهم بعيون الله

[٤٤] المرجع السابق، ص٨٦.
[٤٥] المرجع السابق، ص٨٧.
[٤٦] المرجع السابق، ص٨٧. انظر أيضاً:
- مرقص (١٢: ٣٠).
- لوقا (١٠: ٢٧).
[٤٧] المرجع السابق، ص٨٧.

يعني أن يحبهم. ورأى الفاروقي في هذا الرأي خلطاً في الأوامر بين الوصية الأولى والوصية الثانية.[٤٨] وشبّه الفاروقي هذا القول بقولنا: إن الهالكين هم أولاً الناس، وثانياً الإغريق.[٤٩]

وأما من قال بأن الوصية الثانية هي ثانية من حيث القيم، وأنها جاءت من أجل إعطاء الوصية الأولى دفعة نحو الأرض حتى لا تكون دعوة للتصوف الأفلاطوني، فقد وصف الفاروقي هذا الرأي بأنه "تفسير يرتبط بمفهوم (المسيح الاجتماعي) الأنجلوسكسوني، أكثر منه بالمسيح التاريخي، الذي كان يقف في مركز التاريخ الأكثر عنصرية واحتضاراً."[٥٠]

جدلية الأخلاق الجديدة

ويناقش هذا الفصل الثالث من الكتاب "جدلية الأخلاق الجديدة" ويتعرض فيه للقيم القديمة، وما يقابلها من قيم جديدة دعا إليها المسيح؛ إذ إن المسيح قد جاء بأخلاق جديدة، واجه بها الوعي اليهودي، فالمجتمع اليهودي كان مقوّضاً، والأخلاق اليهودية متدنية، والعبادة اليهودية متعصبة ومنحرفة... .[٥١] وفي هذه الظروف كان المجتمع اليهودي ينتظر مخلِّصاً (المسيا) الذي سوف يعيد تأسيس مجد إسرائيل، وينفخ الحياة في روحها، ولم يكن اليهود ينتظرون ثورةً تعيد تأسيس البناء الاجتماعي، وتؤسس واقعاً جديداً تماماً. فالله، الذي يعرفه المسيح، قادر على أن يجعل من الحجارة أبناءً لإبراهيم؛ لأن إرادة الله التي يريدها للناس على الأرض، لا يمكن أن تعتمد على بني إسرائيل، ولا على أي جنس آدمي آخر، وهذا يعني أن المسيح لم يأت لإصلاح أو تطوير المجتمع أو العِرق أو الدولة، وإنما جاء لإحداث تحول كامل للإنسانية جمعاء.[٥٢]

لقد أراد المسيح أن يأت بميلاد كامل وجديد للعالم، ولذلك أخبر المسيح اليهود بأنه (لا يرى ملكوت السماء) بينهم.[٥٣] وبهذا رفض المسيح فكرة اختيار اليهود، فبالنسبة له

٤٨ المرجع السابق، ص٨٧، ٨٨.
٤٩ المرجع السابق، ص٨٧، ٨٨.
٥٠ المرجع السابق، ص٨٨.
٥١ المرجع السابق، ص٩١.
٥٢ المرجع السابق، ص٩١.
٥٣ المرجع السابق، ص٩١.

لم يكن أي إنسان أفضل من الآخر حتى يميز نفسه أخلاقياً، فمحبة الله والعمل الصالح، ومعرفة الله، هي العلاقة الوحيدة التي فكّر فيها المسيح، وهي التي تضع الناس جميعاً في علاقة أخلاقية على مستوى واحد مع الله؛ "لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي." (مرقص ٣: ٣٥)

والله في نظر المسيح ليس إلهاً لليهود وحدهم أو لإبراهيم أو يعقوب أو إسحق وأبنائه على وجه الحصر، الله هو إله الناس جميعاً، وجميع الناس يقفون أمامه ضمن علاقة واحدة "..ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله.." (متّى ١٩:١٧)، "وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ." (متّى ٢٣:٩)، فقد رفض المسيح الحصرية اليهودية التي رأى فيها سبباً لإغلاق مملكة السماء في وجه البشرية.[٥٤] وعلى هذا الأساس انتقد المسيح عادة اليهود بتسمية أنفسهم (أبناء الله) ودعوة الله (أباهم)، وأخبرهم بأنه إذا كان هناك أحد جدير بأن يكون أباهم فهو الشيطان، فالمسيح نفى أن يكون لليهود علاقة أبوية مع الله.[٥٥]

وانتقد الفاروقي إظهار (متّى) المسيحَ معلماً للشرائع اليهودية، كما ترسّخت خلال أجيال من مركزية الذات العرقية "لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ." (متى ٤: ١٧)

فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ .وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. (متّى ٤: ١٩)، كما جعل متّى رسالة المسيح محصورة في قبائل إسرائيل وخرافها الضالة. وأما لوقا فقد أبدى ميلاً للأمل اليهودي بإعادة عرش داود (لوقا ٢٢: ٣٢-٣٣). وذكّر بنبوءة أن المسيح سوف يأتي ويحرر شعبه (لوقا ١: ٦٨،٦٩).[٥٦]

---

[٥٤] المرجع السابق، ص٩٢.

[٥٥] المرجع السابق، ص٩٢. ويؤكد هذا المعنى ما جاء في (يوحنا ٨: ٤٢) "فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قِبَلِ الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني."

[٥٦] المرجع السابق، ص٩٣.

لقد حطّم المسيح أسس الأخلاق اليهودية القائمة على (الإقصائية العرقية)، وأخبر المسيح اليهود بأن عليهم أن يبحثوا عن مملكة الله، وليس عن مملكة إسرائيل. عندما يحدث التحول الذي دعا إليه المسيح، فلن يكون هناك حاجة إلى الشريعة؛ لأن الإنسان في تلك الحالة سوف ينظر إلى إرادة الله في كل ظرف يجد عليه نفسه.[٥٧] ولم يقل المسيح بأن الشريعة كلها باطلة في جوهرها، ولكنه نظر إليها وكأنها قلب، "حتى إنْ لم تكن دائماً قلباً سليماً لرجل مريض."[٥٨]

القيم القديمة، والقيم الجديدة:

تناول المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب موضوع القيم القديمة والقيم الجديدة، وسعى إلى إبراز تباين القيمي في الروايات المسيحية عن المسيح عليه السلام.

وأشار إلى ما روته الأناجيل الثلاثة الإزائية[٥٩] حول موقف المسيح من قضية دفع الضرائب، ويعلّق الفاروقي على التسويغات المختلفة لرد المسيح على من حاول اختباره، ويرى أن جميع هذه الأقوال هي أقوال سطحية، ومتملقة لا تتناسب مع شخصية نبي سماوي مُلهَم من الله، وكان أحد أعظم المعلمين الذين علموا الأخلاق في التاريخ الإنساني.[٦٠]

لقد جاءت أخلاق المسيح؛ لتكون ثورة على النظرة اليهودية، التي رأت أن المحبة الإنسانية التي دعا إليها المسيح هي خروج عن الدين (كفر)، فمحبة الله بالنسبة لهم هي محبة إسرائيل، وأية محبة إنسانية يجب أن تخضع لشريعة إله إسرائيل.[٦١]

مثّلت قضية عمل الخير يوم السبت علامة فارقة بين التعاليم اليهودية وتعاليم المسيح، فيوم السبت هو اليوم الذي يمثل التشريع الأكثر أهمية في الديانة اليهودية، لكونه

[٥٧] المرجع السابق، ص٩٤.
[٥٨] المرجع السابق، ص٩٤.
[٥٩] وهي أناجيل متى مرقص ولوقا وسميت كذلك لأنها متشابهة في حديثها عن القصص نفسها حول المسيح.
[٦٠] المرجع السابق، ص٩٨.
[٦١] المرجع السابق، ص٩٨.

يمثل العلاقة الخاصة بينهم وبين الله.[٦٢] وقد جاء في التعاليم الربانية اليهودية أنه "إذا حافظت كل إسرائيل على سبتين (أو سبت واحد) بكل تفاصيله، فإن إسرائيل سوف تتخلص من المنفى على الفور."[٦٣] و"من يأكل الوجبات الثلاث يوم السبت فسوف ينجو من بلاء أيام المسيح، ومن حساب جهنم، ومن حرب يأجوج ومأجوج."[٦٤] وفي حين كان الفريسيون يدعمون قدسية يوم السبت كان المسيح يدعم قدسية عمل الخير. وهذا الأمر واضح في مخالفة المسيح للتعاليم اليهودية المتعلقة بيوم السبت (لوقا ١٣: ١٦).[٦٥]

لقد سعت اليهودية إلى إخضاع مفهوم الخير لمصلحة بقاء المجتمع، في حين سعى المسيح إلى تحطيم تلك العلاقة بين المجتمع والأخلاق؛ لأنها كانت نقيض كل شيء يسعى إليه، فالخير والقواعد الأخلاقية كانت هي الغاية العظمى بالنسبة إليه، وهي مسألة حاسمة؛ لأنها تتضمن محبة الله للأخلاق.[٦٦]

في مجال الأسرة:

سعى الفاروقي إلى إظهار التباين الكبير بين الأخلاق اليهودية (التي انتقد مرجعياتها الدينية)، وأخلاق المسيح، ورجع الفاروقي في حديثه عن الأخلاق في المجال الأسري إلى قصة يعقوب وابنته "دينا" مع الأمير "شكيم ابن حامور" الذي أحب دينا وضاجعها. ويذكر سفر التكوين كيف أن يعقوب قد اشترط على شكيم أن يختتن هو وقومه، وأن يدفع مئة قطعة من الفضة حتى يتمكن من الزواج من ابنته (تكوين ٣٤: ١-٣١)، ثم قام أبناء يعقوب بذبح جميع الذكور، وأخذوا جميع النساء والأطفال والممتلكات (تكوين ٣٤: ٣١). ويخلص الفاروقي إلى أن هذه القصة تُظهر كيفية تحريم الانفصالية العرقية اليهودية؛ أي زواج مختلط، حتى وإن تمت عبرنة (نسبة إلى العبرانيين) مملكة شكيم

[٦٢] المرجع السابق، ص٩٨-٩٩. انظر قضية عمل الخير يوم السبت في: (مرقص: ٣: ٤)
[٦٣] المرجع السابق، ص٩٩.
[٦٤] المرجع السابق، ص٩٩.
[٦٥] المرجع السابق، ص١٠١.
[٦٦] المرجع السابق، ص١٠١.

كلها.[٦٧] كما رأى الفاروقي في هذه القصة تأكيداً على الانفصالية العرقية الحصرية التي صبغت الشخصية العبرية خلال مرحلة الآباء، كما هو الحال في مرحلة وجودهم في مصر، وهذا ما جعلهم يحتفظون بهويتهم طيلة فترة مكوثهم في مصر، وحتى في مرحلة إقامتهم في فلسطين، فقد ذكرت الأسفار اليهودية زواج داود، وسليمان، وآحاب بغير العبرانيات.[٦٨] وهذا يؤكد أن الزواج المختلط لم يمر دون ملاحظة الأسفار اليهودية وإدانتها له.

وعلى المستوى الشخصي فإن المجالات السياسية والاجتماعية والأسرية تعطي أفقاً واسعاً لمحبة الله؛ لتصبح فاعلة ومحددة لأخلاق الإنسان، ويمثل المستوى الشخصي أعظم مستوى يمكن لهذا الحب أن يؤثر من خلاله.[٦٩] والحب هو دوماً سمة للفعل، ولكنه ليس الفعل نفسه، والحب هو المبدأ الأعلى والحتمي الوحيد، وهو بالضرورة مبدأ الخير والفضيلة.[٧٠]

أخلاق المسيح والشرعية المسيحية:

نظر الفاروقي إلى أخلاق المسيح على أنها تأسيس أصيل للتحرر من الشريعة على وجه العموم، وذلك من خلال التحوُّل الكامل للنفس، الذي من شأنه أن يجعلها منقادة لإرادة الله. وعلى هذا الأساس لا يرى الفاروقي أية علاقة بين الوصية الأولى للمسيح (محبة الله) و"شريعة المسيح"، ويرى أن هذا المصطلح الأخير لم يتم توضيحه أبداً.

ويشير بهذا الخصوص إلى ارتباك الفكر المسيحي في توضيح المقصود بـ(شريعة المسيح) عند: و. هـ. دود (O.H. Dodd) الذي انطلق من "موعظة الجبل" ليؤسس لـ(شريعة المسيح).[٧١] ورأى الفاروقي أن ما أسماه (Dodd) "إعادة إنتاج نوعية واتجاه الفعل الإلهي" مخالفة واضحة لما ذهب إليه أوغسطين "أحبب وافعل ما تريد."[٧٢] فقد

[٦٧] المرجع السابق، ص١٠٢.
[٦٨] المرجع السابق، ص١٠٢.
[٦٩] المرجع السابق، ص١٠٣.
[٧٠] المرجع السابق، ص١١٠، ١١١.
[٧١] المرجع السابق، ص١١٩.
[٧٢] المرجع السابق، ص١٢٢.

ذهب (Dodd) إلى أن المسيح نفسه قد وضع عدداً كبيراً من المبادئ الأخلاقية بصيغة تشريعية تشير إلى ضرورة إطاعتها. ويعلّق الفاروقي على ما ذهب إليه (Dodd) بقوله: "إذا كانت هذه هي طبيعة (قوانين المسيح) فهي ليست قوانين، وإنما نُسَخ مصدَّقة عن واقع ملموس لروح مسكونة بمحبة الله، لم تدع فرصة دون إعطاء إرادة الله وجوداً حقيقياً."[٧٣]

الصوفية الموازية:

يناقش الفاروقي في بداية هذا الفصل المقولة التي تذهب إلى أن التصوف في كل من الإسلام والمسيحية هو الذي يقرب بين الديانتين، ورأى أن من يذهب إلى هذا القول هم المسلمون العلمانيون الذين ينطلقون من الثقافة والفكر الغربي، ووجد أن انجذابهم للتصوف مردّه سعيهم إلى التأكيد على الجانب الشخصي، والانسحاب من المجتمع، وهذا يرتبط بإنكار العلمانيين للتشريع الإسلامي في الحياة العامة وحصره في المجال الشخصي، ولذلك يرى الفاروقي أن الاعتقاد بأن التصوف هو الذي يقرب المسيحية والإسلام هو انحياز غربي فحسب، وسخّر الفاروقي جهداً كبيراً في مناقشة أصول هذا التصور وانتقادها.[٧٤] وقد ناقش الفاروقي ثلاث نظريات عالجت النظرة المتوازية للتصوف، وأخلاق المسيح على النحو الآتي:

أولاً: ما ذهب اليه عدد من الدارسين المسيحيين والعلمانيين من جهة، والإسلاميين الغربيين الذين جعلوا التصوف المسيحي والإسلامي ردةَ فعل تاريخية على شخصنة الشرعية اليهودية من خلال "الفريسيين" في الحالة المسيحية، وعلى شخصنة الشرعية الإسلامية من خلال "الفقهاء" في الحالة الإسلامية.

ثانياً: رأي لويس ماسنيون، الذي يؤيده أغلب الدارسين المسلمين؛ إذ يرى أن أصل التصوف كان في زهد النبي والصحابة، وأنه كان تطوراً داخل الإسلام، وليس تأثراً بالعناصر الخارجية.[٧٥]

[٧٣] المرجع السابق، ص١٢٣.
[٧٤] المرجع السابق، ص١٣٦-١٤٤.
[٧٥] المرجع السابق، ص١٤٥.

ثالثاً: إن التصوف هو الإسلام نفسه، وإنّ المتصوف الأول كان هو النبي محمد ﷺ، وإنّ كتاب التصوف الأول كان هو القرآن. وقد انتقد الفاروقي هذه الاتجاهات الثلاثة في تفسير نشأة التصوف وأرجع التصوف إلى المؤثرات الفارسية.[٧٦]

إعادة التقويم المسيحية:

هذا العنوان القسم الثاني من الدراسة، والذي يشتمل على ثلاثة فصول، تناول الفصل الأول موضوع هوية الإنسان وعلاقتها بصورة الله، وانطلق من نظرة المسيح للإنسان، التي رفعته إلى مكانة فوق الشريعة، (قمة الخلق)؛ فالإنسان بمنظور المسيح هو غاية المجتمع؛ لأنه يعطي لإرادة الله وجوداً حقيقياً.[٧٧]

في المسيحية الهلينية: الإنسانية

ينطلق الفاروقي تحت هذا العنوان من مقدمة ذهب فيها إلى أن قيمة الإنسان في المسيحية قد تمّ اكتسابها في التاريخ بعد المسيح. ويذكر في هذا الصدد تسمية "ابن الله" التي استعملها لوقا في حديثه عن آدم؛ إذ رأى الفاروقي أن لوقا قد أعطى آدم والبشرية من بعده وضعاً أسمى من (صورة الله) التي استعملها بولس في وصفه للمسيح، فالمسيح في عيون بولس هو (صورة الله) الذي لا يُرى.[٧٨] وقد عدّ بولس الإنسانية كلها في صراع خاسر ضد الخطيئة، وبذلك يظهر أن بولس لم يقبل فكرة الطبيعة الخيّرة للإنسان، التي هي نتيجة طبيعية لمفهوم (صورة الله)، أمّا ذهاب بولس في هذا الاتجاه، فمن أجل أن يؤكد أن موت المسيح جاء تضحيةً تكفيريةً لتلك الخطيئة؛ فصورة الله في الإنسان لم تعد موجودة بالنسبة لبولس.

[٧٦] المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٦.

[٧٧] المرجع السابق، ص١٥٧.

[٧٨] المرجع السابق، ص١٥٨. "فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ." (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس) (١١: ٧)

مسيحية ما قبل الإصلاح، رفض الضرورة الإنسانية للإنسان[٧٩]

أضاف القديس أوغسطين مَلَكة الحب إلى كل من مَلَكتي التذكر والمعرفة، اللتين رأى فيهما أفلاطون المكونين للصورة الإلهية في الإنسان. أما الروح فهي التي تعطي هذه القوى فعاليتها، وهي "الصورة والشَّبه" الذي على أساسه جعل الإنسان فوق جميع الكائنات غير العاقلة،[٨٠] وهكذا فإن الثقافة الهلينية قد تمّ امتصاصها في العقيدة الأوغسطينية. إلا أن (الصورة والشَّبه) التي يمتلكها كل إنسان يجب أن تمارس وتتحقق بالشكل الصحيح، وهذا ما يعطي (الصورة) بعدها الأخلاقي، وجعل قيمة الشَّبه (الشَّبه الإلهي) قيمة حيادية وملكة ضرورية للإنسان، ولكن يبقى السؤال: كيف يمكن لقيمة (الشّبه الإلهي) أن تضيع في استعمالها الإنساني؟ وللوصول إلى إجابة عن هذا السؤال حاول أوغسطين أن يفرّق بين تعبير (كصورتنا أو شَبَهِنا) وكنوعه (نوع الإله). فسِفر التكوين ذكر أن الله خلق الإنسان (على صورته)، وهذا يعني أن الله خلقه على هذه الصورة حتى يتمكن من الرجوع إلى الله.[٨١]

ويرى الفاروقي أن القديس أوغسطين لم يفهم المقصود بالعبارة التوراتية؛ نظراً لوعيه غير السامي الذي بقي متأثراً بمفهوم (رأس الإله) في الثقافة الهلينية.[٨٢] يقول القديس أوغسطين: "الشرف الحقيقي للإنسان هو صورة وشبه الله، والذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعلاقة مع الله."[٨٣] فالمسيحية عدّت نفسها إعادةَ إدراك للوجه الثاني للعقيدة (البولُسِية) التي ضاعت في عهد الحواريين والآباء.[٨٤] فالنظر إلى الإنسان على أنه (صورة الله) مثّل سبباً كافياً لفعل الله الرحيم، المتمثل في إرسال يسوع وجميع الرسالات، إلا أن الفاروقي لاحظ أنه من غير الممكن لغير المسيحي أن يقول إنه يملك (صورة الله) فيه، وبما

٧٩ المرجع السابق، ص١٥٩.
٨٠ المرجع السابق، ص١٦١.
٨١ المرجع السابق، ص١٦١.
٨٢ المرجع السابق، ص١٦١.
٨٣ المرجع السابق، ص١٦٢.
٨٤ المرجع السابق، ص١٦٢.

أن هذه الصورة ضرورية لتحقيق الإنسانية، فإن ذلك يؤدي إلى القول بأن غير المسيحي ليس إنساناً.[٨٥]

لقد وفّرت عقيدة أوغسطين الجسر الذي عبرت فوقه جميع النظريات المسيحية عن الإنسان، فأوغسطين تبنّى الصورة الطبيعية وتطورها إلى صورة متضمنة في توجيهاتها الأولى، وهذا ما بقي سمة بارزة في جميع النظريات المسيحية للإنسان. أما الصورة المكتسبة فهي ضرورية في تسويغ الفضائل المسيحية، ورفع القيمة الشخصية للإنسان الذي يتمثلها.[٨٦] ومن جهة ثانية فتحت عقيدة أوغسطين الباب واسعاً للعقلانية والنسبية؛ إذ إنّ صورة الإنسان في سفر التكوين، وفي الثقافة الهلينية، وعند الآباء الرسوليين تتضمن القول بأن صورة الله في الإنسان تعني أنه مكرَّم بحد ذاته.

وفي حديث الفاروقي عن تأثير الفكر الإسلامي في اللاهوت المسيحي، يذهب إلى أن هذا التأثير كان من خلال النظر إلى الإنسان بوصفه كائناً عقلانياً قابلاً للتعليم... والنظر إلى أن صورة الله في الإنسان تكمن في عقلانيته الطبيعية.[٨٧]

في الإصلاح: إصلاح همجية الإنسان

سعى مارتن لوثر إلى تحرير المسيحية من سلطة روما وكنيستها، وإلى القول بأن المسيحي يمكن له أن يحقق خلاصه الخاص بنفسه دون كنيسة روما. وإذا كان الإيمان وحده كافياً لتحقيق الخلاص، من خلال أن الإيمان يُعيد للإنسان ما كان قد فقده قبل الإيمان، فإن هذا يعني أن الإيمان ليس شيئاً يملكه الإنسان بطبيعته، فصورة الإله قد فقدها الإنسان، ولا يمكن له أن يستعيدها إلا من خلال الإيمان وحده. لذلك يجب أن يكون معنى (صورة الله) هي الاستقامة والفضيلة، التي كان آدم قد حصل عليها مرة، ثم فقدها، ولم يحظ بها المسيحيون إلا من خلال الإيمان.[٨٨]

---

[٨٥] المرجع السابق، ص١٦٢.
[٨٦] المرجع السابق، ص١٦٤.
[٨٧] المرجع السابق، ص١٦٤.
[٨٨] المرجع السابق، ص١٦٥.

ركز لوثر على فعل "التجدُّد" الذي عدّه وحده الضروري لتحقيق الخلاص، ولذلك لم يقبل وصف (صورة الله) بأنها عالمية أو ضرورية، ولم يقبل كذلك بالنظام (العقلي الطبيعي).[٨٩] فجميع الخير في الإنسان لا يكون إلا من خلال الإيمان، وهذا ينطبق على الإنسان اليوم كما ينطبق على آدم قبل السقوط، مما يعني أنه لم يوجد إنسان بعد آدم غير المسيحيين فقط، فلا إنسان غير المسيحيين الذين عرفوا العقيدة المسيحية لطبيعة الإله ويسوع المسيح. وأما غير المسيحيين، فهم متشيطنون على قدر ما يستعملون ذاكرتهم وإراداتهم وعقولهم.

ويذهب لوثر إلى أن ظروف آدم الطبيعية قد كانت أسمى مما آلت إليه بعد ذلك، فالهفوة الأخلاقية قد أحدثت تغييرات فيزيائية ذات تأثير كبير، ولكن "التجدُّد" الروحي لم يحدث أياً من تلك التغيرات على الإطلاق.[٩٠]

في المسيحية المعاصرة: أوهام غير العقلانيين

أثّر انتقادكالفن الشديد لفساد الإنسان على أفكار عدد من المفكرين المسيحيين واتجاههم، لإدانة (حالة الإنسان الطبيعية)، التي توصف في عموم الدوائر الفكرية البروتستانتية بـ (الخطيئة).

ويمثل الفيلسوف الوجودي سيرن كيركجارد "Soren Kierkegaard" صورة واضحة لذلك العداء الصارخ للطبيعة الإنسانية، التي قدّمها أوغسطين، ومن ثم حركة الإصلاحيين بعد القديس بولس، فبالنسبة لـ(كيركجارد) فإن الإنكار الأوغسطيني واللوثري للصورة الإلهية في النظام العقلاني الطبيعي للإنسان قد أصبح أكثر مغالاةً وتشدداً.[٩١] صورة الله لم تعد موجودة في الإنسان ولا حتى أثرها، والإنسان يمكن له أن يكون على صورة الله عندما يوافق أن يكون لا شيء من خلال عملية العبادة، وهكذا فإن كيركجارد قد أخضع القيم الطبيعية للقيم الدينية في الإنسان، ووصل به الأمر إلى

[٨٩] المرجع السابق، ص١٦٥.
[٩٠] المرجع السابق، ص١٦٦.
[٩١] المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٧.

إنكار (الصورة الطبيعية)، ليس بوصفه قيمة فقط بل (بوصفها وجوداً).[٩٢] إن الوعي المسيحي الغربي المعاصر لم يعد يرى الإنسان الطبيعي يشغل أي مكان في الوجود.[٩٣]

ويتناول الفاروقي أبرز من تحدث عن مسألة طبيعة الإنسان من المفكرين المسيحيين في القرن العشرين، وهما إيميل برونير (Emil Brunner) وكارل بارث (Karl Barth). وقد عُدّت "كلمة الله"، التي يقصد بها (الإيمان بالمسيح) فرضية مسبقة لأية معرفة مسيحية للإنسان، فلا إمكانية للمعرفة دون افتراضات مسبقة كما يعتقد (برونير)،[٩٤] لأنه بحسب تسويغه من خلال المسيح أوحى الله لنا وجوده ووجودنا، وعلى ذلك فإن النظرية المسيحية للإنسان لا يمكن أن تنتقد من قبل غير المسيحيين ولا حتى أن تفهم.[٩٥]

ماذا على الإنسان أن يكون؟

يتناول الفصل الثاني من القسم الثاني من الكتاب الإجابة عن سؤال: ماذا على الإنسان أن يكون؟

وتحت موضوع الخطيئة والخلاص، يذهب الفاروقي إلى أن البدهية القطعية في الوعي المسيحي، التي تبدأ بها العقيدة المسيحية هي وجود الخطيئة، يقول ليسيلي نيوبيجن (Lessilie Newbigin) "حيثما وأينما نظرنا إلى الإنسان نجد أنه مليء بـ(التناقضات الداخلية)."[٩٦] ولا يقف الأمر عند هذا الحد الذي يجعل التناقض هو جزء من طبيعة الإنسان فحسب، وإنما يمتد إلى المجتمع، والكون حيث تتوجه ضد الله.[٩٧]

التأكيد على وجود الخطيئة (كون الخطيئة) لا يؤكد الحقيقة الإمبيريقية (التجريبية) بأن بعض الناس خطّاؤون، وأنهم يمارسون الظلم، ويرتكبون الشر، فهذه حقيقة ساذجة ولا يتبعها شيء على المستوى الديني أو الأخلاقي وفق النظرة المسيحية. ما تقوله

[٩٢] المرجع السابق، ص١٦٧.
[٩٣] المرجع السابق، ص١٦٧.
[٩٤] المرجع السابق، ص١٦٧-١٦٨.
[٩٥] المرجع السابق، ص١٦٨.
[٩٦] المرجع السابق، ص١٩٣.
[٩٧] المرجع السابق، ص١٩٣.

المسيحية هو أن الخطيئة ظاهرة عالمية وضرورية، وأن جميع الناس أخطأوا وسوف يخطؤون حتماً، وأن الخطيئة متجذرة في عمق طبيعة الإنسان.[٩٨] وعلى ذلك فإن الإنسان غير الخاطئ لن يكون إلا من خلال يسوع المسيح بطبيعته الثنائية الإلهية والإنسانية.[٩٩] ويقول نيوبيجن (Newbigin) "الخطيئة هي شيء موضوع في مركز الشخصية الإنسانية... وهي تحدث أوضاعاً حقيقية، ومروعة ليس للإنسان فحسب، ولكن لله أيضاً."[١٠٠]

ينتقد الفاروقي نظرة "نيوبيجن" للإنسان، ويرى فيها تأكيداً لـ(الشر الكامل والضروري)، وإدانة شاملة للخلق، وللجنس البشري في الماضي، والحاضر، والمستقبل. كما يرى فيها إسقاطاً للخير الإنساني، فالخطيئة أو الشر أمرٌ ضروري، وكوني، ولا سبيل إلى الخلاص منه في الطبيعة الإنسانية.[١٠١] ويطلق الفاروقي على هذه العقيدة المسيحية تسمية (Peccatism) الإثمية، وهي في نظره المقدمة الكبرى لجميع اللاهوت المسيحي،[١٠٢] فهي بمثابة نقطة البداية للإيمان المسيحي برُمَّته؛ لأنه إذا كانت نقطة البداية قد عدّت الشر غير ضروري، والخير ممكناً، فإن عقيدة أخرى غير المسيحية يجب أن تأتي؛[١٠٣] لأن الشر إن لم يكن ذا قدرة كلية كما يدعي (الإثميون) لم يكن هناك سبباً للفداء أو حاجة ضرورية للتدخل السماوي.[١٠٤] وفي الوقت الذي تتفق فيه العقائد التوحيدية على أساس أول "أن الله موجود" فإن العقيدة المسيحية تضيف أساساً ثانياً وهو أن "الخطيئة موجودة".[١٠٥]

ويذهب الفاروقي إلى أن المسيحية لا ترضى ولا تستطيع أن ترضى ببدهية "أن الله خير، وأن كل ما يأت منه خير"، فهي تذهب إلى أنه إلى جانب كونه خير (حسن)، فإنه ذو طبيعة ثالوثية، فأحد شخوص الإله هو يسوع المسيح، وهو ابن إله، تجسّد وصُلب

[٩٨] المرجع السابق، ص١٩٣.
[٩٩] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠٠] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠١] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠٢] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠٣] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠٤] المرجع السابق، ص١٩٤.
[١٠٥] المرجع السابق، ص١٩٦.

وخرج من بين الأموات، وهذا ليس حدثاً تاريخياً، وإنما هو قضية أزلية.[١٠٦] فمن خلال المسيح جاء الخلق، وهذا يعني أن عقيدة الخطيئة تشكل جزءاً جوهرياً من التصور المسيحي للإله.

ويذهب الفاروقي إلى أن العلاقة بين الإله والشّر قد جاءت من الديانة المانوية أو الزرادشتية، فالمانوية تقول بأن الخير والشرهما قوتان إلهيتان، وإنهما موجودتان من البداية في بنية الحقيقة. وأما الزرادشتية فإن انغرامائنيو (أهريمان) وأهورامزدا "اله الخير" كلاهما إله،[١٠٧] فالمسيحية في نظر الفاروقي تتضمن أكثر مما ذهبت إليه المانوية أو الزرادشتية، فالشّر قد هُزم وقُهر من قبل الله من خلال يسوع المسيح، ولكن الوضع لم يتغير، فالشّر قد استمر في كونه حقيقة فعالة وقوية في العالم، لذلك فالمسيحية هي أكثر مانوية من المانوية، وأكثر زرادشتية من الزرادشتية؛ لأنها جعلت الخطيئة أو الشّر أمراً أزلياً يعود إلى الله، ناهيك عن انضوائه في (صورة الله).[١٠٨]

الخلفية اليهودية:

يعود الفاروقي إلى التاريخ اليهودي؛ ليبحث عن أصول فكرة الخطيئة والشّر، فيرى أن الوعي الديني للمنفى، وما بعد مرحلة المنفى نزولاً إلى زمن المسيح، قد أدى بالوعي اليهودي إلى الشعور بالتناقض بين القول بأن الله خير وحسن، وفي الوقت نفسه الاعتقاد بصحة الحقيقة التي تظهر الخطيئة والشر سمةً كونية هي الأبرز.[١٠٩] فعندما فشلت العنصرية اليهودية في تحقيق أهدافها بسبب المعوّقات القاهرة، اتجهت إلى إدانة الإنسان بوصفه كائناً شريراً لا أمل له، وقد صقل الوعي اليهودي هذه الإدانة وأصبحت بمثابة هاجس له.[١١٠] وهذا المعنى نجده في المزامير "هأَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي" (٥١: ٥).

---

[١٠٦] المرجع السابق، ص١٩٦.
[١٠٧] المرجع السابق، ص١٩٨.
[١٠٨] المرجع السابق، ص١٩٨.
[١٠٩] المرجع السابق، ص١٩٩.
[١١٠] المرجع السابق، ص١٩٩.

وعلى الرغم من أن هذا المعنى ليس مطابقاً لنظرية "الإثمية" المسيحية، ولكنه يمثل جذر مفهوم الخطيئة الأصلية التي نضجت في المسيحية فيما بعد. لقد قدّمت الخطيئة للشعور اليهودي فهماً جديداً للفراغ بين اليهود والله.[١١١] وبدأ العقل التأملي في البحث عن تفسير لذلك الصراع، ورسّخ بينهم أنهم ليسوا دائماً في حالة من البؤس الدائم، وأنهم في مرحلة سابقة كانوا مباركين في الفردوس اليهودي، وفي حالة كمال مع إلههم. لقد ضغط واقع الشّر على الروح المؤمنة بالله، وجعله يصف الله بـ(إله إسرائيل)، الإله الذي بارك شعبه بكل أمر خيِّر منذ القِدم، وكان دوماً ملبياً لطلبات شعبه ورغباتهم.[١١٢]

ولم يعجز العقل اليهودي عن إيجاد نصوص دينية توضح سبب الدخول غير العقلاني للشّر إلى هذا العالم، وأول تلك النصوص كان قصة الملاك السّاقط والطوفان. فقد جاء في الكتب اليهودية غير القانونية أن بداية الشّر قد انتقلت من الملائكة إلى آدم وحواء، بعد أن أصبحت قصة الملائكة غير صالحة لتفسير وجود الشّر اللاحق. ووفقاً لقصة نوح فإن جميع الناس (الخطاة) قد ماتوا سوى نوح وأسرته، الذين كانوا من المستقيمين فقط، فكيف يمكن للشّر أن يأتي من الخير.[١١٣] ولم تحل هذه المشكلة إلا في القرن الثاني قبل المسيح من خلال كتاب: (Book of Jubilees) (كتاب اليوبيلات، وهو ليس من الأسفار القانونية)، الذي حَلّت فيه قصة آدم وحواء في الفردوس مكان قصة سقوط الملائكة في تفسير أصل الشّر في العالم. ويرى الفاروقي أن بولس قد تبنّى هذه الرؤية الأبوكريفية (نسبة إلى الأسفار المنحولة)حتى يؤسس لعقيدة الفداء.[١١٤]

إن إعادة التقويم المسيحي للنظرة اليهودية حول مسألة السقوط لم تنجح في توظيف قصة آدم في سفر التكوين للتأكيد على (الإثمية)، فعندما ارتكب آدم، من بعد حواء، المخالفة لأمر الله، ووقع عليهما العقاب الإلهي، ينتهي الموضوع عند هذا الحد. ولذلك

---

[١١١] المرجع السابق، ص١٩٩.
[١١٢] المرجع السابق، ص٢٠٠.
[١١٣] المرجع السابق، ص٢٠٠.
[١١٤] المرجع السابق، ص٢٠١.

يرى الفاروقي أن قصة آدم هذه تمثل دليلاً ضعيفاً على نظرية (الإثمية)، وعلى الخطيئة وسقوط الجنس البشري. ويوضح الفاروقي رأيه هذا في ثلاث نقاط:

أولاً: القول بأن خطيئة إنسان واحد، التي هي خطيئة أخلاقية، أصبحت متصلة بالبشر جميعاً من خلال الوراثة الجسدية هو قول لا يمكن له أن يصح بأي منطق كان، فكما رأينا سابقاً، فإن أخلاق المسيح هي أخلاق فردية يقوم عليها التحول الذاتي، وارتباطها بالروح الفردية للإنسان في لحظته الشخصية الخاصة.[١١٥] فما يفعله أو لا يفعله الإنسان يعود إلى قراره الخاص ومسؤوليته الخاصة، فكيف يمكن لهذا الفعل الشخصي أن يصبح مسؤولية لشخص آخر أو للناس جميعاً؟

ثانياً: أنْ يصبح عقاب إنسان واحد عقاباً للناس جميعاً هو سلوك مستحيل؛ لأنه حتى وإن مارس الناس جميعاً الفعل الخاطئ ذاته، وأبدوا الرغبة نفسها، ونتائجها السيئة، فإنها لا تتطلب بأي معنى من المعاني الإدانة ذاتها أو العقاب نفسه. وقد رأينا في الجزء الأول كيف أن الأخلاق الطيبة أو غير الطيبة تنطلق من خلال إدراك إرادة النفس فقط.[١١٦] ثم كيف يمكن لإرادة جميع الجنس البشري أن تتخذ الدوافع نفسها، والقرارات ذاتها، حتى تكون الإدانة نفسها لجميع الحالات.[١١٧]

ثالثاً: إن مضمون الفعل الخاطئ لآدم، وهو على وجه التحديد "الأكل من شجرة المعرفة،" هو في نظر جميع الجنس البشري نقيض للفعل الخاطئ.[١١٨]

ما الذي يجب على الإنسان أن يفعل؟

يناقش الفاروقي في هذا الفصل الفعل الإنساني في المنظور المسيحي. ويبدأ حديثه عن المسيح والكنيسة، ويشير إلى أن المسيح لم يفكر بعقيدة الكنيسة، ولم يكن في زمنه أية كنيسة، كما أن كلمة الكنيسة لم ترد في الأناجيل سوى مرتين في (متّى ١٦: ١٨)

---

[١١٥] المرجع السابق، ص٢٠١.
[١١٦] المرجع السابق، ص٢٠١.
[١١٧] المرجع السابق، ص٢٠١.
[١١٨] المرجع السابق، ص٢٠٢.

"فوق هذه الصخرة سوف أبني كنيستي،" وذلك في الإشارة إلى بطرس. وأما الموضع الثاني فجاء في (متّى ١٨: ١٧) وهو يشير إلى الكنيسة بوصفها تجمعاً للرجال، وهو ما يقترب من مفهوم اليهودية للكلمة.[١١٩] ولم يكن بناء الكنيسة بأي معنى من معانيه، من اهتمام المسيح الذي كان جل اهتمامه منصباً على إعادة التوجه والتحول النفسي.[١٢٠]

وعن علاقة المسيحية بالمجتمع يقرُّ الفاروقي بأن معظم المفكرين المسيحيين يؤيدون الأخلاق الاجتماعية، وهذا ما يسعد المسلمين، على حد تعبير الفاروقي، فالأخلاق الاجتماعية هي تحقيق لإرادة الله إلى جانب الأخلاق الفردية، كما أن الأولى هي تكميل للثانية.[١٢١] ولكن الفاروقي ينتقد وجود نظام اجتماعي للمسيحية، ولا يجد لذلك أي أساس في النصوص الإنجيلية.

ويناقش الفاروقي بعض الطروحات المسيحية التي تعالج هذه القضية كما هو الحال مع ويليام تمبل (William Temple)، و روبرت اوين (Robert Owen)، ودعوتها إلى مجتمع يكون فيه الناس جميعاً أعضاء فيه من خلال فضيلة إنسانيتهم، وليس من خلال الأسس العقدية.[١٢٢] ويشير الفاروقي إلى أن الثورة الصناعية هي التي أظهرت الحاجة إلى الفكر الاجتماعي في المسيحية، وأن هذا الفكر لم يكن مطروحاً قبل ذلك في المسيحية.[١٢٣] وعلى ذلك فإن إقامة نظام اجتماعي في المسيحية يتطلب إجراء تعديلات داخل الفكر المسيحي، ففي اللاهوت المسيحي التقليدي يشير مصطلح "مملكة الله" إلى الكنيسة وليس المجتمع، ومن هنا فإن الدعوات التي تنادي بإيجاد نظام اجتماعي مسيحي يقوم على الأسس العقدية المسيحية فاشلةٌ ولا يمكن تحقيق هذا النظام.[١٢٤] وقد ذهب اللاهوت المسيحي المعاصر إلى حل هذه المشكلة من خلال القول بأن "ملكوت الله" هو

---

[١١٩] المرجع السابق، ص٢٤٨.
[١٢٠] المرجع السابق، ص٢٤٨.
[١٢١] المرجع السابق، ص٢٥٤.
[١٢٢] المرجع السابق، ص٢٥٥.
[١٢٣] المرجع السابق، ص٢٥٥.
[١٢٤] المرجع السابق، ص٢٥٥.

كل من الكنيسة والمجتمع.[١٢٥] إلا أن المشكلة الكبرى تبقى في النظرة المسيحية نفسها، التي عدّت "الإثمية" و"الخلاصية" هي المضمون الجوهري للأخلاق المسيحية، وهذا ما يتعارض تماماً مع "المجتمعية".

وأما ما يسمى بـ"لاهوت المستقبل" الذي ينطلق من أن "ملكوت الله" هو هذا العالم فقط، فهو بحسب نيبوهر (Nibuhr) يقوم على رفض أية سلطة لأية شريعة على المجتمع، ويرى الفاروقي أن مشكلة هذا الاتجاه الحقيقية تكمن في رؤيته أن مملكة الله هي ما يُفكر به الإنجلوسكسون.[١٢٦]

ويؤكد الفاروقي مرة أخرى أن المسيح لم ينظم كنيسة نظراً لاهتمامه بالمشاكل الأكثر عمقاً للأخلاق، وهي المتمثلة في التحول الجذري للنفس من خلال انبعاث قراراتها من إرادة الله. إلى جانب اهتمامه بالأمراض المستفحلة للانفصالية اليهودية، والقبائلية، وإهدار الإرادة من أجل صهيون السياسية والجغرافية.[١٢٧] ولا يقصد الفاروقي، في نفيه لعدم إقامة المسيح نظاماً اجتماعياً، تناقضَ تعاليم المسيح مع النظام الاجتماعي، إلا أن تركيز المسيح كان منصباً على الجانب الفردي قبل كل شيء. ويتمنى الفاروقي لو أن العقيدة المسيحية تنطلق من أخلاق المسيح، وما قام به من اختراق للأخلاق اليهودية، وأن تتوجه العقيدة المسيحية إلى تغيير الوعي المسيحي، ومواجهة الأوضاع التي أنتجها التطور الصناعي والمدني في العالم المسيحي.[١٢٨]

ويرى الفاروقي أن حدوث هذا التغير في الوعي المسيحي، سوف يكون بمثابة بداية صحيحة، تصحح النظرة المسيحية لرسالة النبي محمد ﷺ، بدلاً من النظر إليه على أنه عقبة مستديمة.[١٢٩] إلا أن ما يسميه الفاروقي دوغمائية العقيدة المسيحية التي وقعت مع ثيريتوليان (Tertullian) واثناسيوس (Athanasius) بعده، ومجمع (نيقيا) بعد ذلك،

[١٢٥] المرجع السابق، ص٢٥٥.
[١٢٦] المرجع السابق، ص٢٩٣.
[١٢٧] المرجع السابق، ص٢٩٤.
[١٢٨] المرجع السابق، ص٢٩٤.
[١٢٩] المرجع السابق، ص٢٩٤.

وتزاوج هذه الدوغمائية مع العقلانية (الضد حياتية)، (المناوئة للحياة) لدى القديس أوغسطين في مجمع خلقيدونيا، كل ذلك يحول دون تحقيق ذلك التغيير.

ويرى الفاروقي أن الفكر المسيحي لا يمثل أخلاق المسيح، وأنه بات معادياً للمجتمع؛ لأنه كيف يمكن للإرادة الاجتماعية المرتبطة بالمكان والزمان، والعالم والحياة أن تتصالح مع إدانة "الإثمية"؟ وكيف يمكن للنشاط الاجتماعي أن يتصالح مع النزاع الخلاصي، الذي يعني أن جميع الاحتياجات الإنسانية التي ينبغي القيام بها قد تحققت مرة واحدة للمجتمع؟ وكيف يمكن للنظام الاجتماعي أن يتوجه نحو المستقبل، الذي لا يتحقق إلا بجهد الإنسان وحده، وأن ينسجم مع المجيء المفاجئ للملكوت، والمترافق مع الاضطراب الكوني؟[١٣٠]

وفي الخاتمة تعرّض الفاروقي للابتعاد الذي وقع للتعاليم المسيحية السائدة عن تعاليم المسيح، فتلك التعاليم السائدة التي حكمت الفهم المسيحي للخطيئة والخلاص قد سيطرت على الإيمان المسيحي. والمقررات العقدية التي مثّلت الصيغة الوحيدة لما جاء به المسيح، هي مقررات يمكن نقدها وتتبعها من خلال تكوينها وتطورها التاريخي.[١٣١] ويؤكد الفاروقي أن مقررات العقيدة المسيحية، التي اصطبغت بالإثمية والخلاصية، قد انحرفت بعيداً عن العقيدة التي تتصف بالتحرر من التناقض والانسجام مع تاريخ النبوات. فالعقيدة المسيحية الأصلية، في نظر الفاروقي، لم تختف من التاريخ، ولكنها نحت إلى جانب التقاليد الأخرى في النصوص الدينية المسيحية.[١٣٢] فالانحراف قد تمّ بحسب الفاروقي من خلال حكم السلطة نفسها التي اعتمدت التحريف، وهذه السلطة كانت هي كنيسة العاصمة الإمبراطورية؛ روما، التي دعت نفسها الكنيسة الكاثوليكية والرسولية حصرياً دون غيرها، وادّعت أنها وحدها من يمتلك حقيقة يسوع المسيح.[١٣٣] وهذه السلطة هي التي اعتمدت النصوص واحتكرت تفسيرها. وما نحتاج إليه اليوم، برأي

[١٣٠] المرجع السابق، ص٢٩٤.
[١٣١] المرجع السابق، ص٣١١.
[١٣٢] المرجع السابق، ص٣١١.
[١٣٣] المرجع السابق، ص٣١١.

الفاروقي، ليس أقل من الإصلاح، ولكنه ليس إصلاحاً كذلك الذي قام به لوثر ضد سلطة الكنيسة، وإنما ضد سلطة التراث المتراكمة.[١٣٤] ولا يقصد الفاروقي نفي التراث المسيحي واستبعاده برمته، وإنما بتحقيق المسيحيين التحرر في علاقتهم بالترا،ث بداية من فهمهم للأناجيل، والقديس بولس إلى بول تيلتش، وكارل بارث.[١٣٥] ويدعو الفاروقي المسيحيين إلى إعادة اكتشاف العقيدة المسيحية، تماماً كما فعل المثقف المسلم الذي أعاد اكتشاف الصورة الأصلية للإسلام، ودرّب نفسه على استبعاد الغثاء المتراكم عبر القرون. وهنا يرى الفاروقي مستوى آخر للحوار الإسلامي المسيحي، الذي يقوم على جدلية التوالد الروحي المتبادل، الذي هدفه رؤيا الله، وعمل إرادته، وإقامة القيم الشعورية، والفعلية في المكان والزمان.

خاتمة:

يمثل كتاب الأخلاق المسيحية تطبيقاً عمليا للمبادئ العامة المعيارية التي وضعها الفاروقي لدراسة الأديان، والكشف عن أصولها الأولى، وتطوراتها المتعاقبة، وإمكانية الحكم عليها بعيداً عن النظرة الذاتية وأحكامها المسبقة.

لقد نجح الفاروقي إلى حد كبير في إعادة اكشاف الديانة المسيحية، من خلال تتبعه للمهاد التاريخي والثقافي الذي ظهرت فيه المسيحية، وأسهم في تكوين مقولاتها العقدية؛ بدءاً بالعنصرية الانفصالية لليهودية، التي صبغت الأخلاق اليهودية، وتركت بصماتها على النص الديني للعهد القديم، ومروراً بالمؤثرات الهلينية، والغنوصية، والمانوية، والزرادشتية، التي أثّرت في صياغة مفهوم الخطيئة، والنظرة التشاؤمية للحياة، وانتهاء بعقيدة الثالوث التي رأى فيها الفاروقي امتداداً منطقياً، ومتطلباً حتمياً لعقيدة الخطيئة.

رأى الفاروقي أن جذور المشكلة الأساسية في الفكر الديني المسيحي، تكمن في النظرة "التأثيمية" للإنسان، التي جعلت من الخطيئة مشكلة عالمية، وحتمية كونية لا

[١٣٤] المرجع السابق، ص٣١١.
[١٣٥] المرجع السابق، ص٣١١.

مناص للهروب منها، إلا بالتدخل الإلهي الخلاصي. وأثبت الفاروقي أن أخلاق المسيح عليه السلام كانت منصبةً على النفس الفردية، وبُعدها الداخلي، من خلال إحداث التحول الجذري لتلك لنفس، بعيداً عن البناء الاجتماعي والتشريعي.

وأظهر الفاروقي كفاءة كبيرة في التعامل مع المصادر المسيحية، والدراسات الغربية ومناهجها المعاصرة، الأمر الذي أكسب تحليلاته الفكرية، وطروحاته النقدية قوةً وتماسكاً، قلما نجدها لدى جل الكتّاب المسلمين المعاصرين.